التحولات السّوسيوثقافية للمجتمع المغربي
رصد لحركية الأسماء والتّسْمِيات في الفضاءات العمومية

محمد الحامدي
باحث في التواصل وعلم الاجتماع
المغرب

لا يمكن الجدال في أن النُّظم اللّغوية التي ابتدعها الكائن البشري منذ القديم، كانت ولا تزال خاضعة لسيرورة من التحولات والتّقلبات التي يحكمها الزمان والمكان والظروف والأحوال، كما أنها ظلت على استعداد لتبادل التأثير والتأثر فيما بينها، إن على المستوى المحلي أو الكوني، وهو منطق لا ينطلي فقط على الظواهر اللّغوية، وإنما يمكن سحبه على سائر التّشكيلات والنّظم الثقافية المتباينة، وهنا نقصد نُظم العيش وطرائق الإحساس ومختلف المنتوجات العلمية والصنائع الأدبية الشفاهية أو المكتوبة، وأساليب الأزياء والعمارة وفنون الطبخ والممارسات الطقوسية، وما ينضاف إلى ذلك من إبداعات في مجال الأذواق والفنون والجماليات.

تنعكف هذه المقالة على دراسة وفحص المتون التّسْمَوية المبثوثة في الفضاءات العمومية (وجدة نموذجا)، وذلك من أجل رصد مختلف التحولات التي تعتريها، وفي الوقت نفسه الوقوف على مختف الشروط العوامل التي المتحكمة في حركيتها، سواء كانت تلك الشروط ذات مرجعية ذاتية تتصل بأدوار ومواقع واتجاهات الفاعلين الاجتماعيين، أو الشروط الموضوعية التي تُعزى إلى مختلف المحددات التاريخية والسياسية والاقتصادية والثقافية المتحكمة في إنتاجها.

وبالنظر إلى خصوبة وغنى المادّة المستهدفة في هذه الدراسة، سينصب تركيزنا على مبحث يُعنى بالنظر في الدخيل اللّغوي ضمن النسق التّسْمَوي المتداول في مدينة وجدة، وهي ضرورة منهجية تحتم علينا حصر الظاهرة المدروسة، للتمكن من ضبطها ومعالجتها واستنطاق مكوناتها، في أفق رصد الأثر الذي تمارسه التسميات الدخيلة على المشهد السُّوسيوثقافي موضوع الدراسة. ولتحقيق هذه المطالب ننطلق من التساؤلات الإشكالية التالية؟

- ما طبيعة المعجم التسموي المبثوث داخل الفضاءات العمومية بالمدينة؟ ومن أين يستمدّ ماهيته ودلالاته مرجعياته؟
- إذا كان هذا النسق التسموي قد عرف سيرورة من التحولات والتقلبات في الزمان والمكان، فما هي أبرز المتغيرات والعوامل المسؤولة عن حركيته وتقلباته؟
- بأي معنى يمكن القول إن الظواهر الإسمية تمارس أثرا بالغا في تشكيل الخارطة الرمزية والثقافية للمجتمع، وما مدى إسهامها في أفعال التنشئة الاجتماعية وصناعة التمثلات والمخيال المشترك داخل الكون الاجتماعي؟

أولا: عين على أسماء الساحات والشوارع العمومية

إن محاولة قراءة المتن الاسمي المبثوث على مستوى الساحات والشوارع العمومية، ومختلف المحلات التجارية والخدماتية، يجعلنا أمام مشهد بانورامي غني بالنصوص الثقافية والرمزية التي تؤثث فضاء المدينة في إطار نسق خاضع لدينامية مستمرة. فسيرورة تأهيل الفضاءات المكانية تُترجم بشكل أو بآخر علاقة الأشخاص بالمكان من خلال أنسنته وإضفاء القيم الثقافية عليه، إما بتكرار التسميات أو تغييرها[1]، ثم إن الزمن الاجتماعي يُجسد سيرورة من التحولات التي تتسم بالديمومة، كما يعكس ملامح وسمات

العلاقات التي يخضع لها الوضع البشري، وهي علاقات تارة تكون على من الانسجام وتارة أخرى ينطلي عليها الصراع، ثم إن النمط السائد للسلطة يشكل نموذجا لإضفاء طابع الشرعية على الوجود المشترك داخل المجتمع[2].

وفي هذا السياق يمكن القول بأن الفضاء الوجدي بما يحمله من ظواهر لغوية، يقدم لنا بنية من المفاهيم والمقولات التي تتيح لنا إمكانية رصد مختلف التحولات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية سواء في دلالاتها المحلية أو من حيث تقاطعها واشتباكها مع مؤثرات خارجية.

فالشارع العمومي في تقدير "محسن البوعزيزي" هو« ليس ذلك الممر الذي تَطَؤُهُ الأقدام يوميا، بل هو فضاء الحراك البشري في لحظة زمنية معينة، وهو المكتوب والمصور، وهو العلامة الإرشادية، واللّافتة الإشهارية، والألوان والأضواء، وهو الجدار بما فيه من هندسة معمارية، توالت عليه الحضارات وتقاطعت فيه فخلفت آثارها فيه، وتركت شواهدها عليه [3] ».

عندما نتساءل عن ملامح التسميات في المجال المدروس، نجد بأن الفضاءات العمومية على اختلافها سواء في مدينة وجدة أو غيرها من المدن المغربية، كانت تَعُجُّ بأسماء يتداولها الفاعلون الاجتماعيون، إلا أنها لم تصبح مكتوبة أو مُدَوَّنَة على الجدران والواجهات إلا مع بداية فترة الحماية، حيث ظلت التسميات يطغى عليها التداول الشفوي بين الساكنة، وهو ما نلاحظه في المدينة القديمة التي نجد بها مجموعة من التسميات مثل: سوق الغزل، سوق عبد الوهّاب، سوق الخُبز، رحبة الزّرع، القيسارية الكبيرة، القيسارية الصغيرة...[4].

ومع دخول المستعمر أصبحت المدينة خاضعة لنوع من التخطيط والذي يجاري التحولات التي عرفتها المدينة في الغرب، حيث تم إيلاء الأهمية لتسمية الشوارع والساحات العمومية والمحلات التجارية والإدارات العمومية والمدارس والأحياء وغيرها من المؤسسات، ولأجل هذا فإن تلك التسميات أخذت نكهة غربية، بحيث راحت تستمد مقوماتها اللغوية والدلالية من المرجعية الثقافية الفرنسية.

إلا أنه مع مرحلة الاستقلال سوف ينصب اهتمام الفاعلين السياسيين والمدنيين على محاولة إضفاء الطابع الوطني على تلك الأسماء، لكن هذا لم يمنع من استمراريتها، بل نُلاحظ كيف أن الاسم الأجنبي وخاصة في المجال الإشهاري أصبح يحتل مساحات كبيرة على الواجهات.

عموما يمكن القول بان المتن التسموي الذي يُغطي الفضاءات العمومية بالمدينة، يَضُم تشكيلة فسيفسائية تنهل من مرجعيات لسانية مختلفة، بحيث نجد هيمنة واضحة للتسميات الفرنسية طيلة فترة الحماية، وخاصة أسماء الشوارع والممرات والحدائق والمدارس والساحات العمومية... ، مع تغييب الاسم العربي والأمازيغي ، لكن مع بداية الاستقلال وفي إصار تصفية التركة الكولونيالية، تمت تنحية هذه التسميات واستبدالها بمتن عربي إسلامي، على ان يعود الاسم الغربي للواجهة، وخاصة ضمن اليافطات والمتون الإشهارية، و فسح المجال لمرجعيات لسانية أخرى كاللغة الإنجليزية، الإسبانية، الإيطالية..

ولإبراز ذلك سوف نقوم بجرد مجموعة من التسميات بدءا من مرحلة التغلغل الأجنبي بالمدينة، ونكتفي هنا بنماذج من أسماء الساحات والشوارع العمومية.

ثانيا: خرائط رمزية جديدة

لقد أشرنا ضمن ملاحظة سابقة إلى أن الفضاء المكاني الوجدي وبالنظر إلى طابعه التقليدي، لم يكن يحمل تسميات مكتوبة بخصوص الأزقة والممرات التي تخترق المدينة، بل كان يتم تداولها بشكل شفوي، وعليه فإن اعتماد الأسماء في الساحات والشوارع

والأزقة العمومية، هو تقليد بدأ مع الوجود الأجنبي الفرنسي، وفي هذا السياق سوف نتوجه لجرد المتن الاسمي الذي أصبح لصيقا بالفضاءات العمومية، مع الوقوف على طبيعته ودلالاته وأبعاده في سيرورة التحولات الطارئة التي سيشهدها المجتمع المحلي.

إن دخول الاستيطان الفرنسي إلى مدينة وجدة، سيشكل ومنذ سنة 1907 حدثا تاريخيا، ليس فقط على مستوى حياة الناس ومعيشهم اليومي، بل سيدشن الإرهاصات الأولى لتغير جذري سوف يمس البنيات التحتية والبناء المورفولوجي للمجال، وهكذا سوف تتطور المدينة في اتجاه مجالين مُتنافرين: « لقد امتدت في اتجاه الغرب، والشمال الغربي بالنسبة للأوربيين، وامتدت في اتجاه الشرق والشمال الشرقي بالنسبة للسكان المغاربة والجزائريين [5] »، إننا إزاء عملية يتم بموجبها بلورة التقسيمات الاجتماعية والتي سوف يترتب عنها تكريس الاختلاف بين منظومتين سواء على مستوى الدين أو العرف أو الثقافة بشكل عام، لقد أصبح المجال يحمل تناقضات صارخة تمظهرت بشكل قوي على صعيد مجموعة من الثنائيات: الأنا/ الآخر، الثابت/ المتحول، المتخلّف/المتحضر..، لكن مهما يكن من أمر، فإن هذا التقسيم لا يُمكن ان يحجب عنا حقيقة أساسية، ألا وهي تمرير أشكال من العنف الرمزي الذي جعله المستعمر رديفا للعنف العسكري ضد حركات المقاومة.

فمن خلال التسميات الفرنسية للساحات والشوارع، يروم المستعمر نزع صفات الغرابة التي تُهيمن على المدينة ذات الملامح القروسطوية، إنها محاولة لِفَرْنَسَة الفضاء العمومي كشكل من أشكال الامتداد، والذي يهدف إلى اجتثاث الأسماء المحلية والوطنية، وتعويضها بأسماء يُفترض أنها تحمل " مفهوم الخلاص"« في هذا الخطاب إذن، تَـغْيِيب وإقصاء، وكذا في اللغة حضور ومثول، إظهار وإيصال، ولكن أيضا تحييد وتغييب. وقد يتحول فيها الغياب إلى الحضور من خلال الكشف والحفر والتفكيك حين التساؤل عن الغائب [6]».

إن ترسيم تسميات جديدة الأمكنة المحتلّة، يُجسّد بُعدا استراتيجيا لآليات بناء مفهوم المكان من منظور حداثي، بحيث يتمظهر طابع الاحتواء للمجال المهيمَن عليه في صيغة إجرائية، تظلّ وفيّة للمشروع الاجتماعي، وذلك انطلاقا من فرضية تشرط صياغة المناخ الثقافي والأحاسيس الممكِنة وسائر الممارسات الاجتماعية، بالقاعدة المادّية للمُعطى المكاني. ولأجل ذلك، « يرى الحداثيون المكان شيئا يجري تطويعُهُ لأغراض اجتماعية، وتابعا بالتّالي وباستمرار، لطبيعة المشروع الاجتماعي [7] ».

ثالثا: دلالات التدافُع اللساني بين المركز والهامش

يزعم الخطاب الاستعماري بأن اللغات الأوربية هي اللغات الحقيقية، وأما غيرها فيدخل في إطار لهجات أو لُغيّات تعود إلى القرون الوسطى، ومن ثمة فإن اللغة العربية لم تعد صالحة لشيء فأحرى أن تكون صالحة لحمل الأفكار الحديثة والمفاهيم العلمية الجديدة أو للتعليم[8] ، ومن ثمة فإن ترسيخ الاسم الفرنسي وتثبيته في الفضاءات العمومية يمكن أن يمارس وظيفة مزدوجة، أولها الانتصار للسان الفرنسي من جهة، ومن جهة أخرى، شحن التسميات بعناصر خادمة للإيديولوجيا الاستعمارية ووفية للمشروع للاستيطاني.

هذه المسَوِّغات وأشباهها، سوف تكون مبررا كافيا لإعادة رسم خارطة رمزية للمنطقة وتعويضها بنماذج بديلة، إننا إزاء تغالب عقدي، وسياسي، واقتصادي وتاريخي ورمزي. فأمام هشاشة السلطة المخزنية، وهزالة النظام الاقتصادي المحلي، لم يبق هنالك سوى منظومة رمزية متجذرة في التاريخ، ينبغي تنحيتها من الوعي الجماعي للساكنة المحلية، ولعل هذا هو السبب الذي جعل الفرنسيين يَتعمَّدُون « تغيير أسماء الأماكن والمدن في مستعمراتهم إمعانا في طمس تاريخها ودفن ماضيها وقطع صلة هذا الماضي بالحاضر[9]» ، ففي الجزائر مثلا تم نزع تسمية مدينة (بياض) وتغييرها ب(جيريفيل)، (Geryville)، وعليه فإن تجنيس

الأهالي وجعلهم من الرعايا الفرنسيين يبدأ بتجنيس الخارطة الرمزية التي ينبني عليها المتخيل الجماعي كمرجعية لهوية الفاعلين الاجتماعيين.

يُطلعنا المجال المدروس بقائمة معتبرة من الأسماء التي وضعها المعمرون الفرنسيون لتعيين الساحات والشوارع العمومية، ومنها نجد: ساحة فرنسا، ساحة اليوطي، ساحة النصر، ساحة كليمانصو، شارع بوجو، شارع دومير، شارع غاليني (الزرقطوني لاحقا)، شارع كامبيطا، شارع باريس، شارع أرستيد بريون، شارع كوندورسي، شارع ويسلون، شارع فوش..

وعندما نُخضع هذه الأسماء للمساءلة، تتبلور لدينا رؤية تتعلق بطبيعة الظاهرة الكُولونيالية، التي تقوم على منطق التوسع والانتشار، وهو توسع كمي وكيفي، وعليه فإن المد الاستعماري يكرس نزعة التّسيُّد ليس فقط على الطبيعة أو المجال الفيزيائي وإنما أيضا- إحكام السيطرة على البشر ، وحيث إن التّسيُّد الفزيائي يُعْهَدُ الآلة الحربية، فينبغي التوجه لممارسة السّيادة على مستوى الخارطة الرمزية للأهالي. هكذا تتغلغل الأسماء الدخيلة لكي تُؤثث المشهد العمومي، وتمنحه لبوسا غربيا، « تلك هي لغة الشوارع المكتوبة بما هي نصّ، يعطي حق الامتياز لعلم ويمنحه خصوصية الوجود، ويمنعه عن آخر لينسجم مع المنطق السياسي السائد[10] » .

ويترتب عن ذلك تمظهر العلامات (أسماء الأعلام، وغيرها..) كنسق إديولوجي يقوم على النفي والإثبات، القمع والتبرير، التحييد والتثبيت، شأنها شان اللّغات اللّفظية، وغير اللفظية تريد إنتاج موضوع ما والتعبير عنه، ليس فقط ضمن سلسلة الدوال، وإنما عبر ديناميكية الوظائف العلاماتية، « ووحدها خارطة السيميائية كما تعرف بنفسها في مرحلة محددة من المسار التاريخي (مع رواسب وبقايا السيميائية السابقة التي تجرها وراءها)، تقول لنا من نحن وكيف نفكر وفيم نفكر[11]».

فعندما نتساءل عن الاستعمال المفرط للشخصيات الفرنسية ضمن المتن الأنوماستيكي في الفضاء العمومي، نجد أنفسنا أمام ملحمة يمكن تسميتها ب « أسطورة الخلاص »، التي تستلهم مقوماتها من الروح المسيحية التي تقوم في عمقها على نظرية المسح « مسح الخطايا »ومحاربة الضلال والتكفير عن الخطيئة، ومن جهة أخرى تبدو في صيغة أنتروبولوجية، يظهر من خلالها المغرب، وكغيره من الجماعات "المتوحشة"، مُحتاج للمُعلم الأوروبي، لكي يُلقّنه أبجديات الأنوار في أفق الأخذ بيده شيئا فشيئا، للخروج من الكهف المظلم ومعانقة البزوغ الرائع للشمس.

ثالثا: الخلفيات الفكرية للتّسميات الكولونيالية

إن الخلفية الفكرية التي كان الخطاب الاستعماري مُشبعا بها، هي النّظر إلى لغة الأهالي وثقافتهم وتاريخهم نظرة تجاوز، بوصفه تاريخا يحمل رواسب القرون الوسطى، وتكون النتيجة النهائية هي إعادة إنتاج المعاني (Significations) بحسب ما تقتضيه متطلبات السّوق[12]. ولأجل هذا عندما نعود لتحليل التّسْميات الأولى التي أصبحت مبثوثة على واجهات المحلات التجارية، والمقاهي، والفنادق على سبيل المثال، نُطالع تلك النزعة الأوروبية التي تقوم على منطق الشمولية،

نخلص إذن إلى أن المتن الإسمي الذي أصبح قائما في الفضاءات العمومية، شكّل إحالة مُباشرة على مرجعية فرنسية سواء من حيث مكوناته اللّسانية – لغة فرنسية – أو من حيث مدلولاته الثقافية. وإذا كان هنالك حضور للاسم المحلّي "إسلي" لأحد الفنادق: (Hôtel café d' Isly)، فهو تعبير على وجه الاستثناء، لأنه لا يُراد به الاعتراف بالمكوّن الرمزي المحلّي بقدر ما هو احتفاء بذكرى "معركة إسلي" التي انتصر فيها الفرنسيون على المقاومة المغربية في شرق المغرب، وما يُعزز هذا القول هو إقدام القوّات الفرنسية على تسمية إحدى أنواع مدفعياتها ب: (Bni yaznasan)، وهي القبيلة التي كانت لها صولات

وجولات في معركة "إسلي" التي هبّ فيها أبناء هذه المنطقة إلى جانب قبيلة أنجاد وغيرهم من أبناء المغرب للدفاع عن الأرض، ودعم المقاومة في الجزائر ونُصرة الأمير عبد القادر الجزائري.

هكذا يُمكن القول بأن التسميات التي أحدثها الفرنسيون في المجال الإشهاري، لم تكن لتُغادر الطموحات الاستعمارية في احتلال المجال الرمزي للأهالي، إذ نستطيع أن نلحظ ذلك على مستوى الخطاب اللّغوي، حيث لا تبدو اللغة في هذا المقام كفاعلية للتواصل فحسب، وإنما عملية بناء على حد تعبير (Roland Barthes) وهو بناء يمكن أن يُؤخذ من منظورين: أولهما يقوم على تثبيت خطاب لغوي يعمل على عدم الاعتراف بالمكون اللغوي المحلي، وثانيهما يعمل على إنتاج مضمون ثقافي مفصول عن الذاكرة التاريخية للأهالي، وهو ما يساعد على تحويل الأسلوب إلى « علامة تتضايف فيها الدّوال بالمدلولات لإنتاج المعنى والانخراط الأخلاقي في بلاغة التّسْمِية[13] ».

إن امتداد اللّسان الفرنسي أصبح منذ البدايات الأولى للاحتلال، يتخذ طابعا انتشاريا على عدة مُستويات، فمن التعليم المدرسي إلى لغة التشريع والقانون والإدارة، ومرورا بتسميات الأماكن والشوارع والمؤسسات، ولغة الاقتصاد، والإشهار، والاستهلاك، يكون هذا التوطين اللّغوي بمثابة تحريف، أو طمس للخارطة اللسانية المحلية، ذلك أن اللّغة بوصفها كائنا حيّا، لا يمكن أن تزداد حيويتها إلا من خلال تداولها واستعمالها شأنها في ذلك شأن العضويات الحية، لأن القاعدة البيولوجية تقول: إن "العضو الذي لا يشتغل يموت"، ثم إن استدماج التسميات الدخيلة في عالم الناس ومعيشهم اليومي، تُؤدّي حتما إلى خلق فجوة وتصدّع كبيرين بينهم وبين ثقافتهم.

وهو ما يفسح المجال لمأسسة خطاب جديد يحكمه سياق إيديولوجي، لا يتوانى في إنتاج وإعادة إنتاج الوضعيات التواصلية، وبناء مقولات معرفية، وقيم أخلاقية، لبلورة هوية افتراضية تترسّخ من خلالها نماذج السّلطة بشكل يستجيب للمشروع الاستعماري إن على المستوى السياسي أو الاقتصادي أو الثقافي بشكل عام. ثم إن اللغة كنسق رمزي إيديولوجي كانت ولا تزال رديفة للسياسة والاقتصاد، وقد ازدادت حميمية هذا الاتصال في اللحظة المعاصرة، خاصة في سياق زمن العولمة، حيث احتدم نقاش قَوي بين قِوى تُطالب بالتوحيد، وأخرى تُدافع عن التعدّدية، وهي المعركة التي تشكل واحدة من القضايا الرئيسية في عصرنا[14].

رابعا: نحو تصفية التّركة الكولونيالية.

تُجسد مرحلة التحرر والحصول على الاستقلال، حدثا مفصليا في تاريخ المجتمعات التي تعرضت للاستعمار، وهنا تكون الفرصة سانحة ليس فقط لتأكيد السيادة، ورفع التبعية للآخر، وإنما القيام بحركة تصحيحية للتاريخ، وإعادة كتابته وفق تصورات تستحضر المقومات الأساسية التي ينبني عليها المشروع الوطني في كل أبعاده السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، يقول "عبد الكبير الخطيبي في كتابه "المغرب العربي وقضايا الحداثة" : « كل مجتمع يعيد كتابة المكان الذي يتأصل فيه ثانية، فيما يعيد كتابة تاريخه، وبهذه الحركة يسقط على الماضي ما يفلت منها في الحاضر، بل إن التاريخ هو مسكن الإنسان ومنبت هويته المتعددة[15] ».

ولما كانت التّسميات الأجنبية للساحات والشوارع العمومية تروم تفكيك الثقافة المحلية، وإعادة بنائها وتصريفها وفق مقتضيات وطموحات السياسة الاستعمارية، فإن مرحلة الاستقلال، ستُدشّن لحظة حاسمة لإعادة قراءة هذا الواقع السُّوسيوثقافي، طمعا في نزع العناصر الثقافية الدخيلة التي باتت تهدد مكونات الهوية الوطنية.

ويأتي تغيير التسميات الفرنسية للساحات والشوارع العمومية ضمن مشروع وطني يدخل في إطار "المغربة"، التي طالت مجموعة من القطاعات مثل مغربة التعليم، مغربة الأطر، مغربة القوانين والتشريعات، كما كان هذا المشروع مدعوما بمبادرات ذات طابع رسمي من جهة الدولة. وهكذا تمّ إصدار مجموعة من الظهائر والمراسيم والدوريات التي يتم بموجبها استبدال التسميات التي أطلقها المستعمر على الشوارع والساحات العمومية.

والهدف من ذلك هو تنحية الرموز الاستعمارية من الفضاءات العمومية لكونها تحمل تاريخا يُحيل على كل مظاهر الاستعباد والاستغلال، ومن جهة أخرى تكريس منطق الإقصاء والتحييد للرموز التاريخية والوطنية، ولأجل هذا سوف يَنْصَبُّ اهتمام الدولة إلى جانب الفاعلين المدنيين على تخليد أسماء العديد من الرموز الوطنية التي عُرفت بتضحياتها في مقاومة الاحتلال والدفاع عن السيادة الوطنية، أو أسماء لشخصيات سياسية ودينية أو علمية أو أدبية...[16].

وهكذا تمّ تعويض اسم شارع (Le général Bugeaud) "الجنرال الفرنسي" ب " ادريس بن بوشعيب" وهو أحد الشرفاء الذين ينحدرون من السلالة الإدريسية، كما تمّ تعويض اسم شارع (Welson) بِ " الأمم المتحدة"، وشارع (Le Maréchale Ferdinand Foche) تحول إلى شارع "محمد الدرفوفي[17]"، أما ساحة (Clemenceau)، فقد تحولت إلى ساحة "16 غشت" وفي ذلك تخليد للانتفاضة السادس عشر من غشت سنة 1953، حيث بدأت على الساعة السادسة مساء إلى منتصف الليل، واستمرت في اليوم الموالي في ضواحي وجدة (بركان، تافوغالت..)، وقد جاء بعد ذلك ما يعرف بثورة الملك والشعب 20 غشت 1953.

أما زنقة "إسلي" فقد أطلقها المستعمر الفرنسي تخليدا للمعركة التي يعتبرها الفرنسيون جزءا من تاريخهم، لأنها مكّنتهم من توسيع نفوذهم من الجزائر في اتجاه المغرب، وهي المعركة التي يلتقي فيها ولأول مرة الجيش الفرنسي بقيادة الجنرال (Bugeaud) مع الجيش المغربي، ولهذا فقد تمّ تغيير هذه التسمية فيما بعد باسم "طارق بن زياد. ، أما شارع (Paris)، فقد أصبح يحمل اسم "سيدي شافي[18]".

خامسا: الحيثيات المتحكمة في استبدال التسميات

إن عملية تصفية واجتثاث الأسماء والرموز الاستعمارية من الشوارع والساحات والفضاءات العمومية، يُعد تأكيدا للروح الوطنية، ضدا على الغزو العسكري، والاختراق الثقافي، الذي شهده المغرب إبّان فترة الحماية، إلا أن هذه العملية سوف تثير نقاشات كبيرة في أوساط الرأي العام والفاعلين الاجتماعيين على اختلاف مرجعاتهم الفكرية وخلفياتهم والثقافية، ففي الوقت الذي يرى فيه البعض بأن تقويض المتن الأنوماستيكي الفرنسي يُعد انتصارا للروح الوطنية، وردّا للاعتبار للثقافة المغربية التي تريد قطع دابر الاستعمار، يرى فيه البعض الآخر، بأن تلك التسميات وعلى الرغم من انتمائها للسجل الرمزي الفرنسي ينبغي الاحتفاظ بها، لأنها في الوقت نفسه، تجسد مرحلة من التاريخ المغربي، وينبغي أن نقبل بذلك لأنه جزء لا يتجزأ من الذاكرة التاريخية للمنطقة.

وبيان ذلك هو أن تخليد أسماء أعلام عِظام في مجال الفكر والعلم والفن والمعرفة عموما، مهما كانت جنسياتهم، هو تمجيد للمشترك الإنساني، ما دام هؤلاء كانت لهم يد في تقدم الحضارة البشرية التي يستفيد منها الجميع. كما يمكن اعتبارهم ملكا للجميع، لأن تقدم الفكر البشري ساهم فيه الجميع بدرجات متفاوتة طبعا. فإسبانيا التي حكمها المسلمون لقرون وتركوا بها ثقافة ومآثر عمرانية، لا زالت تحتفظ بأسماء عربية للكثير من المدن والقصور والأماكن وغيرها مثل: (بلد الوليد: Valladoli)، (وادي الرّمّان: Guarroman)، (قصر الحمراء: Alhambra).

وفي السياق نفسه يمكن التحفظ بخصوص حذف التسميات الأجنبية، لأنها جزء من الذاكرة التاريخية والتراثية للمغرب، إذ لا يمكن محوها بسهولة، أضف أن بعض هذه الشخصيات قدمت خدمات جليلة للمجتمع المغربي، إذ يجب أن نميز بين الوجه الإمبريالي لأوروبا والوجه الحضاري الحقوقي، وحتى لو كانت تلك الشخصيات من رموز الإمبريالية، فإنها تُعدُّ تذكارا للأجيال الحاضرة بخصوص التجربة الاستعمارية، وتبعا لذلك فإن الحقيقة التاريخية تفرض نفسها، من حيث إن التاريخ البشري يبقى منفتحا ومتسعا للكل: أهالي وغزاة..، والتاريخ الإنساني فصول متعاقبة تارة يسودها الاستقرار والتعايش والسلام، وتارة أخرى يكون مسرحا للصراع والجدل

وفي جميع الحالات تظلُّ أسماء العلماء والمفكرين الذين خدموا الإنسانية بإبداعاتهم، وساهموا تي تطور المجتمع الإنساني فكريا، وتقنيا وأخلاقيا..، تظلّ إرثا إنسانيا، وواجب على كل إنسان احترامهم، والاعتراف لهم بما اسدوه من خدمات للإنسانية. ولعل تخليد أسمائهم من خلال تسمية بعض الشوارع، أو بعض المؤسسات، يدخل ضمن ثقافة الاعتراف، ويُخَصّب الذاكرة. أما بالنسبة للشخصيات التي أساءت للإنسان بطريقة ما – أقصد الشخصيات العسكرية، ومجرمي الحروب– فهؤلاء لا يستحقون تخليد أسماءهم، لأن ذكراهم مؤلمة وتُوقض الأوجاع والآلام، بل إنها إهانة في حق المواطنين، والإنسان بصفة عامة، ومن ثمة، لا يجب ان تُلَطّخ الشوارع والمؤسسات بأسمائهم.

جدول يبين نموذجا لبعض الاستبدالات التي لحقت التسميات الأجنبية داخل الفضاءات العمومية بوجدة.

الاسم الأجنبي الدخيل	هويته	الاسم الجديد	هويته
Louis Hubert Gonzalve Lyautey	ماريشال فرنسي: المقيم العام في فترة الحماية بالمغرب	جدّة	مدينة بالمملكة العربية السعودية
Thomas-Robert Bugeaud	مارشال فرنسي قائد معركة إسلي سنة 1844	إدريس بن بوشعيب	أحد الشرفاء الذين ينحدرون من السلالة الإدريسية
Georges Benjamin Clemenceau	رئيس وزراء فرنسي	16 غشت	ذكرى انتفاضة وجدة ضد الاحتلال الفرنسي

Woordrw Wilson	رئيس وزراء إنجليزي	الأمم المتحدة	منظمة عالمية تأسست عام 1945 لرعاية السلم العالمي
Ferdinand Foch	جنرال فرنسي	محمد الدرفوفي	مُقاوم ينحدر من قبيلةالنكاديين بشرق المغرب،عرف بمساندته للأمير عبد القادر الجزائري
zouaves	اسم كان يطلق على المجنّدين المغاربة والجزائريين في الجيش الفرنسي	جيش التحرير	الجيش المقاوم ضد الاحتلال الأجنبي
Château briand	كاتب وسياسي فرنسي	أبو العباس السبتي	ولي صالح دفين مرّاكش
François Baumgarten	جنرال فرنسي شارك في الحرب العالمية الأولى	الكتبية	اسم للمسجد الكائن قرب ساحة الفنا بمراكش
Claude Bernard	عالم فرنسي في مجال الطب	خالد بن الوليد	صحابي وقائد عسكري مسلم ملقب ب "سيف الله المسلول"
marquis de Condorcet	فيلسوف ورياضي وموسوعي فرنسي، شارك في الثورة الفرنسية	الإمام البخاري	أشهر علماء الحديث
Joseph Simon Gallieni	قائد عسكري فرنسي قائد عام للسودان الفرنسي / وحاكم عام لمدغشقر	علال بن عبد الله	شهيد مغربي عُرف بروحه الوطنية العالية
Victoire	رمز لانتصارات فرنسا في المغرب	مولاي عبدالله	شقيق الملك الحسن الثاني

POINCARE	عالم فرنسي في مجال الرياضيات والفزياء	المتنبّي	شاعر عربي في العصر العباسي
France	الدولة المستعمرة للمغرب	محمد الخامس	ملك المغرب إبّان فترة الحماية

خلاصة وتركيب

من خلال المسح الميداني للظواهر التّسْمَوية التي تُؤثث الفضاءات السوسيوثقافية المحلّية، نلاحظ بأنها تشكّل مسرحا لتقاطع مرجعيات أهمّ ما يطبعها هو الاختلاف والتّباين، سواء من حيث إحالاتها اللغوية، أو محمولاتها الدّلالية. وهنا نستطيع رصد التسميات الدّخيلة، بوصفها أضحت تشغل حيزا مهمّا ضمن الخارطة الرّمزية للمنطقة. وقد اقترن ذلك بالتجربة الكولونيالية، تلك التي فتحت الباب على مصراعيه لتغلغل مجموعة من الأسماء المستمدّة من السّجلّ الثقافي الأجنبي.

لقد عمدت إدارة الاستعمار الفرنسي – ومنذ حلولها بالمنطقة – على ترسيم مجموعة التّسميات في مجالات عديدة، كالشوارع والممرّات والساحات العمومية، والشيء نفسه فيما يتعلّق بالواجهات الإشهارية، واللوحات الإعلانية للمحلاّت التّجارية والمرافق الخدماتية. إنّنا بصدد تغالب رمزي بين ثقافتين، ذلك أن التّسميات الدّخيلة، والتي أصبحت مهيمنة في المجالات المكانية، لم تعد وظيفتها محصورة في التّحديد والتّعيين، بقدر ما تعمل على سلخ الأفضية السوسيوثقافية المحلّية من مقوماتها الذّاتية، وتحريف مرجعياتها التّاريخية، وفي الوقت نفسه محاولة تشييد خارطة رمزية بديلة.

فعملية الإسماء تلك (بكسر الهمزة)، تنمُّ عن نزعة مركزية غربية مفرطة، ترمي إلى تصريف النّموذج الثقافي الغربي من خلال محمولاته الثقافية والرّمزية، ضمن المعيش اليومي للأفراد والجماعات، ومن جهة أخرى طمس وتقويض المتن الاسمي المحلّي. وتدخل هذه العملية ضمن استراتيجية مُحكمة تريد إعادة كتابة تاريخ المنطقة، أي إعادة إنتاج نموذج رمزي ينسجم مع الطموحات التّوسعية للنّظام الحمائي.

إنّ الثقافة الدّخيلة على مستوى التّسميات، هي بمثابة مأسسة لنظام رمزي يجاري الأشكال الأخرى للتّغلغل بالمنطقة، سواء على المستوى العسكري، أو الإقتصادي، أو السياسي. لذلك نلاحظ بأنّ تلك التّسميات لم تكن موضع تزكية واطمئنان من قبل الفاعلين الاجتماعيين، ولعلّ هذا هو ما جعل الجهات الوصية، تعمد في فترة ما بعد الاستقلال إلى تصفية التّركة الكولونيالية في مجال التّسميات، وهي بادرة تعكس إلى حدّ بعيد درجة الوعي بأهمية التسميات المحلية، والوطنية، والتّاريخية، في صون الذّاكرة الجماعية، وحمايتها من التّحريف الذي انْطلى عليها إبّان المرحلة الاستعمارية.

لكن الاعتراض الذي نسجّله بخصوص هذه البادرة، هو سقوطها من حيث لا تدري في تمركز من نوع آخر، إلا وهو الإقصاء الكلّي لثقافة الآخر في مجال التّسميات، صحيح أن المتن التّسموي الدّخيل بالمنطقة يحمل رموزا لشخصيات عُرفت بسجلّها الدّموي في مجال الحروب التّوسّعية في العالم، وهنا نقصد الجنرالات والماريشالات، والأسماء العسكرية الضّالعة في حروب الإبادة البشرية سواء خلال الحرب العالمية الأولى أو الثانية،، بحيث لا تستحق التّكريم والتّشريف، لكن في المقابل، نعتقد بأن التّسميات المتصلة بعالم الفكر والأدب والعلم والفنون، تستحقّ الإشادة والتخليد وبالتّالي ينبغي الإبقاء عليها وتثمينها، لأنّها ساهمت من خلال إبداعاتها الفكرية، ومُنتجاتها العلمية، والأدبية، والفنّية في تحقيق تراكم معرفي نعتبره ملكية للبشرية جمعاء،

وبالتّالي فإن أسماء من قبيل: (Véctor Hugou)، أو (Lavoisier)، أو (Voltaire)، أو (Descartes)، أو (Gallilee)، أو (Claud Bernard) أو (Archimed) وغيرهم كثير..، كان ينبغي الاحتفاظ بها على سبيل تكريم العلم والفكر والأدب، بعيدا عن ردود أفعال ذات طبيعة وجدانية واندفاعية.

ولئن كان استبدال التّسميات الدّخيلة التي تنهل من السّجل الرّمزي الكولونيالي، يعبّر عن تنامي الحس بأهمية الاعتداد بالثقافة الوطنية والقومية، باعتبارها رأسمال ينبغي حفظه وتثمينه، فإنه من جملة المطبّات التي وقع فيها المعنيون باختيار التّسميات الجديدة، نجد الإقصاء البيّن للإرث الثقافي الأمازيغي، هذا الاخير، الذي لا يمكن القفز عليه لأنّه يعدُّ رافدا من روافد الثقافة المغربية القائمة على التّعدّد وتنوّع الموارد والمشارب والحساسيات.

وبالنّظر إلى الانجذاب الفاحش، والتّهافت الكبير نحو الرّموز والتّسميات الغربية ضمن الفضاءات العمومية، فإن النتيجة الحتمية لذلك هي الانحدار نحو استيهام مَرَضي يُفضي إلى إنتاج واقع يعتريه التّفكك والانشطار. ففي تفاصيل ذلك الواقع الفسيح، تنشطر الذات بين عالمين، عالم تقليدي صلب، لم يستطع أن يغادر تاريخه الموسوم بالنكوص والتقهقر إلى الوراء، وعالم معاصر قائم على منطق التّجاوز والمبادرة والهدم والبناء المستمرين. فالأول تعيشه الذّات على نحو فعلي، في حين أنّ الواقع الثاني يُعاش على نمط افتراضي، وهو ما يعمّق من جرح الذات ومحنتها. ففي كتابه « النّفس المبتورة »، يصف المفكر الإيراني "داريوش شايغان" ورطة الذات، الضائعة بين التّقليد والحداثة توصيفا يجعل منها كيانا مراوغا، لم يستطع أن يفارق منطقة "البين بين" لكي يعبّر عن ماهيته، « (الأنا) وقعت افتراضيا بين فكّي كماشة هذا التّمزُّق، وكان على مرمى سحرين متناقضين: سحر الرؤية المعجبة بعالم لا يزال مُكبّلا بهالة الذاكرة الجماعية، وسحر رؤية.. تمارسها عليه جاذبية الجديد والفاتن[19]».

وفي موضع آخر، يعبر "محمد عابد الجابري" عن هذا الإحراج، بكون القيم والرموز والمكتسبات المنقولة من الغرب على نحو جاهز، أو بطريقة ميكانيكية وبدون تأصيل، غالبا ما يكون وقعها سلبيا على المجتمع المستقبل لها، « بل إن عدم تبيئة تلك القيم في نظامنا الثقافي، هو من العوامل الأساسية في الانشطار الذي يعبّر عن نفسه من خلال الازدواجية المترسّخة في مجتمعاتنا وثقافتنا [20] ».

الهوامش:

[1] - **Matteo Rivoira, Classer l'espace : le patrimoine toponymique oral d'une communauté de la Vallée du Pélis in, analyse culturelle du paysage : le paysage comme enjeu, Actes des congrès nationaux des sociétés historiques et scientifiques, n° 135, Année 2012, P :123. (pp. 113-125).**

[2] **- Josiane Stoesselritz, Les lieux culturels comme espace public: transactions sociales pour un modèle du vivre ensemble, in, Revue des Sciences Sociales, n, 33, Année 2005, p : 131. (pp.126-133).**

[3] - محسن البوعزيزي، السيميولوجيا الاجتماعية، ط، 1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2010.، ص:145.

[4] - لويس ڤوانو، وجدة والعمالة، ج، 1، ترجمة وتعليق، محمد الغرايب، ط، 2، ربانيتا للطباعة والنشر، الرباط، 2004.ص: 62.

[5] - ناجم مهلة، الجاليات الأجنبية بوجدة تحت الحماية، ضمن، مجلة كلية الآداب، وجدة، عدد، 3، سنة، 1992، ص:174.

[6] - محسن بوعزيزي، مرجع سابق، ص: 152.

[7] - ديفيد هارڤي، حالة ما بعد الحداثة: بحث في أصول التّغيير الثّقافي، ترجمة، محمد شيّا، ط، 1، المنظّمة العربية للترجمة، بيروت، 2005، ص: 93.

[8] – لوي جون كالفي، الخطاب الاستعماري حول اللغة، ضمن، كتاب العلم، الفرنكوفونية والسياسة اللغوية والتعليمية بالمغرب، ترجمة وتعليق، عبد العلي الودغيري، العدد 7، سنة، 1993، ص:54.

[9] – بول مارتي، السياسة التعليمية واللغوية الفرنسية بالمغرب، ترجمة وتعليق، عبد العلي الودغيري، ضمن سلسلة كتاب للعلم، مرجع سابق، ص:131.

[10] – محسن البوعزيزي، مرجع سابق، ص: 152.

[11] – أمبرتو إيكو، السيميائية وفلسفة اللغة، ترجمة، أحمد الصمعي، ط، 1، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2005، ص:111.

[12] – المرجع نفسه، ص: 69.

[13] – انظر: أحمد يوسف، السيميائيات التأويلية والأسلوب، ضمن، عالم الفكر، عدد، 3، سنة، 2007، ص: 67.

[14] – **François Grin Langue, économie et mondialisation: balises pour un programme de recherche, in, Français et société,22–23, EME Editions, Louvain–la–Neuve, 2015, p : 7.**

[15] – عبد الكبير الخطيبي، المغرب العربي وقضايا الحداثة، الطبعة 2، مطبعة عكاظ الجديدة، الرباط، 2003، ص:155.

[16] – من بين ما جاء في مقتضيات الظهير الشريف الصادر في 30 شتنبر 1976 المتعلق بالتنظيم الجماعي، التمييز في تسمية الساحات العمومية بصنفين من التسميات، وهي: تسميات بأسماء العائلة الملكية الشريفة، وتسميات تُعدّ تشريفا عموميا أو تذكيرا بحدث تاريخي.

– عملت دورية وزير الدولة الداخلية رقم275م ج م/ق م م/3 بتاريخ11 نونبر 1982 حول تسمية الشوارع والأزقة والساحات العمومية، على تشخيص الاختلالات التي تعرفها أسماء الشوارع والأزقة والساحات العمومية، والدعوة إلى معالجتها، حيث لاحظت أن بعض المدن المغربية لازالت تحمل شوارعها وأزقتها و ساحاتها العمومية أسماء بعض الأجانب الذين كانت لهم يد في احتلال بلادنا، وأن بعض الشوارع التي تمّت مغربة تسميتها وقعت أخطاء غي كتابة أسمائها، بالإضافة إلى التسميات المكررة التي كانت تحملها بعض الشوارع والأزقة.

[17] – وهو محمد بن الحاج النكادي من مواليد 1919، عُرف بصلابته في قبيلة النكادين، الذين انخرطوا في الجهاد إلى جانب الأمير عبد القادر الجزائري ضد الاستعمار الفرنسي، وقد تعرض هذا المقاوم للاعتقال أربع مرات على التوالي سنوات (1937، 1944، 1948، 1951)، ولما تدهورت صحته في سجن ميسور، أُطلق صراحه ليموت بنفس السنة 1951.

[18] – وهو ولي صالح مدفون بالمدينة القديمة بوجدة على مقربة من باب سيدي عبد الوهاب.

[19] – داريوش شايغن، النّفس المبتورة، هاجس الغرب في مجتمعاتنا، ط، 1، دار الساقي، بيروت، 1991، ص: 12.

[20] – محمد عابد الجابري، إضاءات وشهادات: المسألة الثقافية في الوطن العربي منذ الخمسينات، ضمن، مواقف، العدد، 71، يناير 2008، ص: 89.